روح الحضارة الإسلامية

د. محمد عبد الستار نصار

فى تصورى أن استشراف الأمة الإسلامية إلى آفاق المستقبل الرحب الفسيح ، وتطلعها إلى أن تأخذ مكانتها اللائقة بها ، والتى افتقدتها تحت وطأة ملابسات وظروف يطول ذكرها . لا يمكن أن يكون إلا إذا اتخذت من ماضيها المشرق أساسا لمستقبلها المرتقب ، وعلى هدى من الموازنة الدقيقة بين جوانب الحضارة المتعددة ، بحيث لا يطغى منها جانب على حساب الجوانب الأخرى ..

ولقد دعانى إلى اختيار هذا العنوان لبحثى هذا ، أن بعضا من الباحثين — أن لم نقل كثرتهم — فى الغرب ممن درسوا الحضارة الإسلامية فى جوانبها المتعددة ، يذهبون إلى أن هذه الحضارة مدينة فى روحها إلى تراث الحضارتين : اليونانية والرومانية ، وأن الإسلام ليس له من دور فى تشكيل حضارته ، اللهم إلا ذلك المظهر الخارجى فقط .

وقد سار على هذا النهج بعض الباحثين من أبناء جلدتنا ، ممن يدينون بالإسلام ، وقد أداهم إلى ذلك ، إنبهارهم بالحضارة اليونانية ، وما تخللها من عناصر الفكر الحر الطليق ، وما أفرزه هذا الفكر فى كل مناحيه من آراء تتسم بالإنسانية ، لأنها تتحرر — غالبا — من أى ارتباط بالدين أو بالأخلاق ، أو القيم التى تقيد حرية الفكر .

وأعتقد أن هذا المنهج بعيد كل البعد عن الحيدة والإنصاف ، ولو أن هؤلاء الباحثين ساروا فى بحوثهم على قواعد المنهج العلمى المقرر ، وهم بصدد تقويم الحضارة الإسلامية ، لكانت لبحوثهم نتائج غير التى توصلوا إليها .

على أن هناك فريقا من الباحثين ، لهم محاولات جادة فى هذا السبيل ، فجاءت بحوثهم ذات نتائج طيبة — أو كادت — فى الحكم على الحضارة الإسلامية ، وسنحاول أو نلتقى بهؤلاء وأولئك فى ثنايا هذا البحث الذى نمهد له بهذه المقدمة الموجزة .

خطوات البحث :

١ — النظرة الصحيحة إلى مفهوم الحضارة الإسلامية :

٢ — الحضارة الإسلامية : المنهج والهدف .

٣ — الحضارة الإسلامية الموضوع والآفاق .

٤ — نتائج :

أولا : النظرة الصحيحة إلى مفهوم الحضارة الإسلامية :

أن الدارس المتعمق للإسلام ، إذا اتخذ الحياد العلمى سبيله ومنهجه ، يخرج من دراسته هذه بنتيجة واضحة ، هى : أن الإسلام ليس نظاما دينيا فحسب ، بمعنى أن تكون أحكامه وعقائده وأخلاقياته قاصرة على تهذيب النفس وتقويم العقيدة والسلوك ، ولكنه فوق هذا منهج حياة ، ونظام شامل لكل مرافقها ، تتوا كب فيه مناهج تهذيب الروح ، وتقويم السلوك ، وطهارة المعتقد مع نظامه فى المال والاقتصاد والاجتماع ، والسياسة ، فى داخل الدولة وخارجها ، كعلاقة الحاكم بالمحكوم وواجبات وحقوق كل منهما قبل الآخر ، والمعاهدات والمواثيق الدولية ، إلى غير ذلك مما لا يمكن أن تسير الأمة الراقية بدونه .

ولا يخفى على الدارس المحقق أن المحاولات التى تريد أن تحصر الإسلام فى دائرة العبادة وتهذيب السلوك ، وتنأى به عن أن يكون نظاما لكل مرافق الحياة ، إنما هى محاولات عابثة ، مكشوفة الهدف والغاية : تحركها نزعات

تريد أن تعود بمفهوم الإسلام إلى ما كانت عليه المسيحية فى العصور الوسطى فى ظل الأنظمة الكنسية التى كانت لا تقر من الأفكار والآراء والقوانين العلمية إلا ما كان يرضى عنه آباء الكنيسة ، وبهذا المفهوم أصبح متصورا لدى الغربيين أو الدين لا ينهض أن يكون منهجا لقيادة الحياة ، وكانت النتيجة الطبيعية لهذا الموقف أن انعزلت الكنيسة عن الدولة ، وظهر منهجان فى التربية ، لا صلة لأحدهما بالآخر ، ونظامان فى توجيه الحياة ، لا يجمع بينهما رباط ، وهما الاتجاه الدينى المدنى .

كما أن هناك محاولات أيضا تريد أن تنظر إلى الحضارة الإسلامية من خلال منظور مادى . لتقومها فى نطاق ما أفرزته هذه الحضارة فى مجال الماديات مثل : مجال العمارة وما فى مستواها مما يدل على رقى المسلمين وتقدمهم فى هذا النطاق ، بل أننا نلمح فى بعض الكتابات من ذوى الأفكار الخبيثة .

محاولات لإلباس المواقف الروحية فى ظل الحضارة الإسلامية ، أردية مادية بحتة ، وكأنهم بهذا المنهج ، أرادوا أن يلونوا الإسلام وحضارته بما يعتقدون ، وأن يصبوا تراثه الضخم فى إطار ثقافتهم التى أشربوها .

والحق — الذى تمليه طبيعة الأشياء — أن مفهوم الحضارة الإسلامية أوسع من أن يحصر فى ناحية من النواحى ، مادة كانت أو روحية ، كما أنها تستعصى على أن توضع فى إطار معين من أطر الحضارات المعاصرة ، التى تنزع تارة منزع اليمين وأخرى منزع الشمال ، لأن الإسلام ، دين يتجه إلى قيادة الإنسان ، بكل مطالبه ، إلى حياة راقية ، تتحقق فيها مطالبه المادية مع أشواقه الروحية وإن دينا هذا شأنه ومنهجه ، لابد أن تكون حضارته تعبيرا عن مبادئه وغاياته ، وأهدافه ،

وهذا التوازن الذى جاء به الإسلام ، هو ما امتازت به حضارته على

سائر الحضارات التي سبقته وكذلك بقية الحضارات اللاحقة ، ولعل هذا هو الذي جعل « جروينبام » يقول :

تقوم قوة الإسلام في امتلاء شخصيته واكتمالها ، تلك الشخصية التي يستطيع الإسلام أن ينتجها متى كان في خير أحواله .

فالمسلم يتصف بالطمأنينة ، والكرامة والاتزان ، وهي صفات لم تكن لتتطور وتنمو إلا في إطار صورة ثابتة للعالم المثالي والجماعة الانسانية المثالية(١) .

ويبين لنا حينئذ أن الحضارة الاسلامية مركب متكامل متفاعل من المبادىء الروحية والمطالب المادية ، وأن قيمها الروحية كانت منطلقا أساسيا للنزعات المادية وأنه في ظلها تفاعلت كل الآراء والأفكار ، والمبادىء والأهداف بحيث اصطبغت بصبغة روحية مثالية ، وظهر ذلك بشكل واضح في تفكير أعلامها ، كما كان لهذا أكبر الأثر في المحافظة على وحدة الأمة الاسلامية من الناحية العقلية والروحية ، حتى بعد انحلال الوحدة السياسية ، التي كانت تربط البلاد الاسلامية برباط حكومة واحدة(٢) .

والقرآن الكريم - وهو دستور هذه الحضارة - يحدثنا في كثير من آياته عن الصلة الوثيقة بين المطالب المادية والمعاني الروحية ، بل أنه كثيرا ما يلفت النظر إلى الماديات باعتبارها أثرا دل على المؤثر فيه ، وهو الله سبحانه وتعالى .

وهذا منهج واقعي بعيد عن المقدمات النظرية التي قد تستعصي على

---

(١) حضارة الاسلام ص ٤١٠ .

(٢) د : سعيد عاشور : المدنية الاسلامية ص ١٤ .

الأفهام ، وكان القرآن بهذا المعنى يتغيا أحداث علاقة تقوم على الترابط والانسجام بين عناصر الوجود كله ولنضرب لذلك مثلا : يقول الله تعالى : هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور(١) .

في هذه الآية توجيه إلى :

خلق الكون لله سبحانه : الذي بيده الملك ، وهو على كل شيء قدير .

بيان ما امتن به على الانسان من تطويع الأرض له ، وجعلها ذلولا لا تأبى عليه ، وهي بكل ما تحمله على ظهرها ، وفي باطنها من إمكانيات وما يحيط بها من غلاف جوي ، كل ذلك مسخر للإنسان ، من قبل الله سبحانه وتعالى :

أمر الله للإنسان بأن يستغل هذه الامكانيات ، وفي استغلالها على الوجه المناسب شحذ لملكاته ومواهبه ، حتى يكشف القوانين العلمية التي يستطيع بها الوصول إلى أحسن وجه لكيفية هذا الاستغلال .

تذكير الانسان بمبدأ المحاسبة ، على هذه النعم وكيفية استغلالها ، وفيه توجيه لطاقاته الخيرة ، حتى يكون هذا الاستغلال لخير الانسانية لا لدمارها ، وبهذا يكشف القرآن الكريم عن طبيعة الحضارة الاسلامية ومفهومها ، ليرينا اتساق أن ذكرناه من أنها استشراف لمطالب الانسان المادية والروحية بحيث تشكل المبادىء الروحية إطارا حيويا لهذه الحضارة .

ولا يفوتنا في هذا المقام أن نشير إلى مسألة هامة ، تتصل بهذا الموضوع وهي أن بعض الكاتبين يسمون هذه الحضارة بالعربية بدلا من الاسلامية ، وأبادر فأقول : إن الصانع الحقيقي للحضارة الإسلامية هو الاسلام نفسه ،

---

(١) سورة الملك : الآية ١٥ .

وليست اللغة العربية ، أو الموقع الجغرافى للأمة العربية ، فاللغة العربية لم تستطع أن تخلق من نفسها عاملا حضاريا قبل مجىء الإسلام ، كما أن تاريخ العرب القديم يرينا أنه لم تكن لهم أنماط حضارية ذات قيمة كبرى . إذا استثنينا بعض الأعمال الحضارية التى وقعت من العرب فى جنوب شبه الجزيرة، مثل سد مأرب ، وفى أرض المناذرة ، والغساسنة فى شمال شبه الجزيرة.

أما بعد مجىء الإسلام ، ونزوح المسلمين بدينهم الجديد ، إلى آفاق أرحب وأوسع ، فقد التقى الإسلام بمدنيات قديمة خارج نطاق شبه الجزيرة فتفاعل مع الصحيح منها . وتنكر لأوشابها ، وذلك بحكم طبيعته العالمية ، فى نطاقها الزمانى والمكانى . وصبغته المثالية ، التى تهدف إلى التسامى بالإنسان إلى مستوى يليق بإنسانيته .

ثانيا : الحضارة الإسلامية : المنهج والهدف .

١ — فى المنهج :

كان منهج الحضارة الإسلامية منهجا انتقائيا ابتكاريا ، أعنى بذلك أن الإسلام عندما أصبح وجها لوجه أمام الأنماط الحضارية التى كانت موجودة فى سلطان الامبراطوريتين العظيمتين اللتين دخل الإسلام بلادهما فاتحا ، اختار من أنماطهما الحضارية العناصر التى تساعد على بناء الحياة الجديدة ، بحيث لا تتعارض مع روح الدين الجديد، هذا فى جانب الانتقاء، وأما فى جانب الابتكار فقد أفرزت الحضارة الاسلامية مظاهر حضارية، كفيلة بوضع المدنية الاسلامية فى قمة المدنيات الانسانية .

ولعل أول مظهر حضارى جاء به الاسلام — كتطبيق لهذا المنهج — أنه وقف طويلا أمام قضية كبرى ، هى من غير شك من سمات الإنسان المتحضر، وهى قضية التقليد لما كان عليه الآباء والأجداد من عقائد وثنية،

لا يقوم الاعتقاد بها على أساس عقلى مقرر ، كما لا تشهد بذلك الفطر السليمة والأذواق المستقيمة واستعمل القرآن الكريم فى سبيل ذلك، أسلوب الحجاج العقلى الواضح وأثار فى الانسان ملكاته ومواهبه وكل مداركه ، حتى يحدث بينه وبين عناصر الوجود الأخرى علاقة ترابطية . تنتهى به بتدبر سرها إلى الايمان العميق بخالق هذا الكون ، الذى يستحق العبادة وحده عن جدارة ، ولا يفتأ القرآن الكريم يخاطب الانسان بهذه المعانى :

« يا أيها الانسان ماغرك بربك الكريم، الذى خلقك فسواك فعدلك، فى أى صورة ماشاء ركبك »(١) .

إنه توجيه إلى تلمس أدلة الاله الحق فى حنايا الانسان نفسه وهذه ولا شك جاءت بعد أن وقف القرآن الكريم طويلا أمام العقائد الضالة التى كان يدين بها الانسان فى الجاهلية ، مبينا انها لا تضر ولا تنفع ، ولا تغنى عن الحق شيئاً ، على غرار قوله سبحانه وتعالى : « ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ، قل أتنبئون الله بما لا يعلم فى السموات ولا فى الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون »(٢) .

ولا غرابة فى أن تمتد مساحة هذه المواقف من الناحية الزمنية إلى ما يقرب من ثلاثة عشر عاما هى مدة نزول القرآن فى مكة ، لأن اقتلاع العقائد الباطلة ، التى كان عليها القوم — بعد أن ارتبطت بمشاعرهم ووجدانهم — أمر خطير ، ولا يمكن أن يقام بناء حضارى للإنسان فى ظل معتقداته البالية .

وكأنى بالقرآن الكريم « يحسم هذه القضية الحيوية ليصل إلى مايلى :

---

(١) سورة الانفطار الآيات من ٦ — ٨

(٢) سورة يونس : الآية ١٨

. تأكيد المعنى الانسانى فى حياة الانسان، وذلك بإحياء ملكاته والعمل على توجيهها الوجهة الصحيحة، حتى تدرك حقيقة هذا الوجود وصانعه.

. الاعتداد بالانسان الفرد، بحيث يعيد إليه ثقته بنفسه، حتى يستطيع اختيار معتقداته، بعيدا عن ضلالات الجماعة التى انحرفت بها السبل.

. تقدير عالم الطبيعة بجميع عناصره، ليكفى مطالب الانسان فى نظاميها الروحى والمادى، وإلباس عالم المادة معنى روحيا، لأنه أثر لصانع حكيم وفى مقابل استغلال الأثر على الوجه المناسب، يتوجه الانسان إلى المؤثر بالشكر والعرفان بالجميل فى إطار ما شرع من عبادات وأدعية.

. فإذا أصحت النفوس والعقول والقلوب بالعقيدة الصحيحة، وتهيأن المجموعات التى آمنت بالرسالة الجديدة كما أرادها الله سبحانه وتعالى لقيام المجتمع، الذى ينعم الأفراد فى ظله بالطمأنينة والحياة الكريمة، فإن الاسلام هنا يقدم منهجا فى إرساء وأسس المدنية والتحضر، لا يدانيه أى منهج.

ويقوم هذا المنهج على عدد من المحاور الرئيسية، التى تحكم سير المجتمع فى تطوره، حتى يظل مرتبطا ارتباطا وثيقا بمصدر اعتقاده، ويشكل القرآن الكريم المحور الأهم من بين المحاور الأخرى، وذلك بما احتواه من قوانين تنظيمية، تكاد تغطى مطالب الحياة بالنسبة للمسلم. فردا كان أو فى جماعة، ثم يلى القرآن الكريم فى هذا المقام، السنة الصحيحة، التى جاءت لتفصل ما أجمله القرآن، وتوضح مبهمه، ولتقوم بالدور الممتاز فى تبيان مانزل إلى الناس، وتنشىء أحكاما جديدة، بناء على كونها مفصلة مبينة للقرآن الكريم.

ومن فحوى النص الدينى — قرآنا كان أو سنة صحيحة — نشأ فى الاسلام قياس الأشباه والنظائر، وإجماع أهل الحل والعقد، بناء على القواعد

الكلية التى أتى بها التشريع الاسلامى، وبتطبيق منهج القياس والاجتهاد بالرأى لدى من هو له أهل، يصبح من الضرورى أن يكون الشرع الاسلامى قابضا على كل أزمة الحياة، منظما لها، تاركا الأمور الحياتية، للاجتهاد والتجاوب، فى ظل احترام مبادئه الرئيسية، كإطار عام يحمى داخله من آمن بالدين الجديد، أو هادنه ولم يحاربه إذا ظل متمسكا بدينه الأصلى، بالشروط التى تحدد موقف الاسلام من أهل الذمة، مع مراعاة قاعدة التسامح الدينى التى أبرزها الاسلام جلية واضحة. كما تشير إلى ذلك الآيات الكريمة.

« لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى »(١) « فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر »(٢)، « إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء »(٣)

ولو ألقينا نظرة أفقية على منهج الاسلام العملى، لراعنا ذلك النظام الهائل فى نطاق العبادات، بكل أشكالها، وفى مجال المعاملات بسائر أنواعها، ويدهش الانسان إذا وقف أمام تلك الثروة الممتازة من الحلول لمشاكل وقعت أو لازالت مفترضة، صاغها فقهاء الاسلام، على أساس من مراعاة الأسس والمحاور التى أشرنا إليها.

وانبعاث علماء الاسلام وفقهائه إلى تأكيد هذا المنهج وتطويعه، إنما كان وليد الاسلام نفسه — كما رأينا — وبهذا تسقط تلك الدعاوى التى تزعم أن الفقه الاسلامى فى تطوره مدين إلى حد كبير للقانون الرومانى، قال بذلك بعض الباحثين من المستشرقين وغيرهم، ولعل أبرزهم جميعا « جولدزيهر » و « شاخت » قاله الأول فى كتابه « العقيدة والشريعة فى الاسلام »، ورده الثانى فى محاضرة ألقاها سنة ١٩٥٦ فى الأكاديمية الايطالية للعلوم، تحت عنوان « القانون البيزنطى والشريعة الاسلامية ».

---

(١) سورة البقرة من الآية ٢٥٦ (٢) سورة الكهف من الآية ٢٩

(٣) سورة القصص : من الآية ٥٦

وقد تصدى نفر من الباحثين المنصفين لهذه المزاعم ، نذكر منهم المرحوم الدكتور عبد الرزاق السنهوري، فقد قال رداً على هذه الافتراءات: «لم تسلك الشريعة الإسلامية فى نموها الطريق الذى سلكه القانون الرومانى فإن هذا بدأ عادات، ونما وازدهر عن طريق الدعوى والأجراءات الشكلية. أما الشريعة الإسلامية فقد بدأت كتابا منزلا ووحيا من عند الله ، ونمت وازدهرت عن طريق القياس المنطقى والأحكام الموضوعة ، كما أن فقهاء المسلمين امتازوا على فقهاء العالم بعلم أصول الفقه» .

وهناك باحث آخر أعاد المسألة إلى وضعها الصحيح ، فأثبت أن القول بالتأثير والتأثر إن صح بين الشريعة الإسلامية والقانون الرومانى ، ينبغى أن يكون على عكس مزاعم هذين المستشرقين . أى أنه من المحتمل جداً أن تكون الشريعة الاسلامية قد أثرت فى القانون الرومانى .

يقول القانونى المسلم « محمد الشافعى اللبان » « ولم يتضح التلاقى فى بعض الأحكام بين الشريعة الاسلامية والقانون الرومانى إلا بعد أن تطور الأخير وتحرر من الشكلية » وبعد أن التقى فى تطوره بعوائد وتقاليد شعوب وأجناس مختلفة. فإذا قامت المقارنة بين الشريعة الاسلامية والقانون الرومانى الحديث فربما وجدت أحياناً فى أحكام هذا القانون مايلتقى بما جاءت به الشريعة من أحكام ولكن أن صح القول هنا بالاقتباس فالأولى أن يسند ذلك إلى القانون المتبع فى القارة الأوربية لتأخره فى التاريخ بل أن البعض قد وصف القانون الرومانى لذلك السبب بإنه « فقه اسلامى أخذ من الأندلس » .

وبجانب قواعد العقائد الصحيحة التى أرشد الدين الاسلامى إلى اعتناقها

(١) سورة القصص : الآية ٥٦

وقوانين العبادات والمعاملات ، التى تجعل من المجتمع وحدة مدنية متحضرة نلاحظ أيضاً أنه من الأمور البارزة فى منهج الحضارة الاسلامية العناية بالمبادىء الأخلاقية التى لايستقيم الاجتماع الانسانى فى أسمى صوره الا بها والمهم هنا أن هذا التعدد فى منهج هذه الحضارة ، إنما يشكل فى مجموعه وحدة مترابطة ، فى العقائد والعبادات والسلوك، كلها أمور تتجه إلى أحداث وحدة ترابطية منظمة فى حياة الإنسان المسلم ، فى ذات الفرد وفى حياة الجماعة ، حتى إنه من الممكن أن يقال عن هذا المنهج إنه متلائم مع الفطرة الإنسانية لأن الإنسان بحكم كونه إنسانا ، لايخلو من عقيدة يعتنقها ، وخضوعاً لهذه العقيدة لابد أن ينفذ ماتقتضيه من شعائر وطقوس وان تنظم حياته على سنن أوامر هذا الاعتقاد ، فى جانبها القانونى والسلوكى

٢ — فى الهدف :

تهدف الحضارة الإسلامية إلى تحقيق سعادة الإنسان وطمأنينته ، وكأنى بها تجعل من « الانسان » محوراً تدور عليه توجيهاتها ، والذى ينعم النظر فى القرآن الكريم يلاحظ ذلك بلا ريب ، لأنه فى أوامره ونواهيه إنما يقصد ضبط سلوك الإنسان حتى يسعد بهذه الحياة، ويطمئن على مستقبله فيما وراءها. وهذه الأوامر والنواهى لايمكن أن تكون قائمة على القسر أو التحكم ، ولكنها معقولة العلل ، وثمرتها لاتعود مطلقا على الآمر الناهى ، لأنه سبحانه وتعالى فوق عباده وهم المحتاجون إلى عونه ، والمفتقرون إلى توجيهه « يا أيها الناس أنتم الفقراء الله والله هو الغنى الحميد(١) » كما أن من القواعد الدينية

أن الحق لاتنفعه طاعة طائع ولا تضره معصية عاص ومن عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها وماربك بظلام للعبيد(٢)

(١) سورة فاطر : الآية ١٥ (٢) سورة فصلت : الآية ٤٦

ولا يستقيم فى نظر العقل أن تكون أوامر الشريعة الالهية ونواهيها مادة إلى كبت أمور فطرية غريزية ، لأن ذلك يؤدى إلى التعارض بين كونها مخلوقة لله سبحانه وتعالى ، وكونه آمرا بكبتها . وإذن ففى ضوء هذا يمكن أن تفهم فلسفة الاسلام فيما أمر بفعله وما أمر بتركه

وفى اشادة القرآن الكريم بهذه الفلسفة تطالعنا الآية الكريمة « الذين يتبعون الرسول النبى الأمى ، الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم اصرهم والأغلال التى كانت عليهم(١)

والإنسان الذى تجعل منه الحضارة الاسلامية هدفا تسعى إلى اسعاده لا يراد به جنس بعينه ، أو طائفة من البشر تقطن اقليما خاصا ، أو فصائل من الناس ذات أعراض ومواصفات خاصة . ولكنها تعنى : الانسان من حيث كونه كذلك ، وفى نداءات القرآن الكريم نلاحظ هذه الصيغ :

« يا أيها الانسان ماغرك بربك الكريم الذى خلقك فسواك فعدلك »(٢)

« يا أيها الانسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه »(٣)

« ينبأ الانسان يومئذ بما قدم وأخر » ، بل الانسان على نفسه بصيرة »(٤)

« فأما الانسان إذا ما ابتلاه ربه(٥)

---

(١) سورة الأعراف : الآية ١٥٧

(٢) سورة الانفطار : الآيتان ٦ ، ٧

(٣) سورة الانشقاق : الآية : ٦

(٤) سورة القيامة الآية : ١٣ ، ١٤

(٥) سورة الفجر الآية : ٢٣

« يومئذ يتذكر الانسان وأنى له الذكرى (١)

« إن الانسان لفى خسر »(٢)

« لقد خلقنا الانسان فى كبد »(٣)

« ان الانسان لربه لكنود »(٤)

« كلا ان الانسان ليطغى أن رآه استغنى »(٥)

« لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم)(٦)

ويلاحظ أن الانسان أوسع من أن يراد به جنس أو قبيلة ، كما أن معظم هذه الآيات تكشف عن بعض صفات الانسان التى هى محل تعديل وتقويم ومعالجة وبضميمة التوجيهات التى تعالجها — كما جاءت فى آيات أخرى — يبرز هدف الاسلام واضحا من وراء هذه التوجيهات . انه يتغيا الانسان الذى استقام على الجادة حتى يكون أنموذجا يتحقق فيه معنى الانسانية الكاملة

وكما جاء القرآن الكريم بالصيغ السابقة جاء بأخرى تشكل معها عموم النداء والتوجيه . وذلك مثل قوله تعالى :

« يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة »(٧)

---

(١) سورة الفجر الآية : ٢٣

(٢) سورة العصر الآية : ٢

(٢) سورة البلد الآية : ٤

(٤) سورة العاديات الآية : ٦

(٥) سورة العلق الآيتان : ٦ ، ٧

(٦) سورة التين الآية ٤

(٧) أول سورة النساء

« يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا »(١)

« يابنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يوارى سوآتكم »(٢)

يابنى آدم إما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى »(٣)

وظاهر أن هذه النداءات الانسانية العالمية تتجاوز النداءات والتوجيهات والنظرات الضيقة التى انبعثت من خلال الأيدلوجيات المختلفة على مر التاريخ كما أنها فى نفس الوقت ، تنبثق عن عقيدة الاسلام الأصيلة فى الألوهية ذاتها »(٤)

ولقد تجلى العنصر الأخلاقى الانسانى فى مجال التطبيق لنظريات الحضارة الاسلامية فى قضية من أهم القضايا لدى فقهاء القانون الدولى . أعنى بها : العلاقة بين المسلمين وغيرهم ممن دخل الاسلام بلادهم فاتحا ، أو حتى أهل البلاد التى لم تخضع لسلطان الاسلام ، فدائرة الأخوة الانسانية اتسعت حتى تجاوزت دائرة وحدة المعتقد فى ظل الحضارة ، بالشروط التى تحفظ الأمن والاستقرار لمن آمن بالدين الجديد ومن ظل متمسكا بدينه .

وهناك نموذج أعلا لهذه الصورة جسدته وصية رسول الله ﷺ لقواده المجاهدين « أوصيكم بتقوى الله وبمن معكم من المسلمين خير ، اغزوا باسم الله فى سبيل الله من كفر بالله ، ولا تغدروا ولا تغلوا ولا تقتلوا وليدا ولا أمرأة ولا كبيرا ولا منعزلا بصومعة ، ولا تقربوا نخلا ولا تقطعوا شجرا ولا تهدموا بناء »

---

(١) سوره الحجرات من الآية ١٣

(٢) سوره لأعراف الآية ٢٦

(٣) سوره الأعراف الآية (٤) فتحى عثمان : دولة الفكرة ص ١٣

وهذه الوصية لاتحتاج إلى عناء فى النظر ، ليستكشف الإنسان ماتنطوى عليه من معان إنسانية ، ولقد أصبحت دستوراً للفاتحين من المسلمين على امتداد الأزمنة المتتالية وهذا كله استنطق أحد الغربيين(١) بقوله : « والحق أن ما تم للاسلام من نجاح فى بدء أمره مدين لدلل أخرى أبعد غوراً وأكثر إنسانية » .

ومن المواقف الإنسانية أيضاً ، ذلك التصرف الممتاز الذى قام به الخليفة الثانى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فقد ذكر المؤرخون له موقفه العادل من ملك غسان حين أسلم هو وقومه ، وقدموا إلى مكة للاجتماع بأمير المؤمنين ، فلطم ذلك الملك عربيا وطىء إزاره عن غفلة ، فاشتكى العربى الملك إلى عمر بن الخطاب ، فرأى أن يعمل بما تأمر به الشريعة من إقامة الحد ، فقال الملك صارخا : كيف ذلك يا أمير المؤمنين وأنا ملك وهو من السوقة ، فقال أمير المؤمنين : إن الإسلام جمعكما وسوى بين الملك والسوقة فى الحد ، وهل هناك بعد الإخاء والعدالة من أسس يمكن أن يقام لها بناء حضارى ؟ .

وفى سبيل إبراز هدف الحضارة الإسلامية اعتمدنا على أسس هذه الحضارة ومؤثراتها المباشرة ، ضاربين لبعض النماذج الحية التى تجسد هذا هذا الهدف معرضين عن بعض التصرفات التى قد تشوه وجهها المشرق غير حافلين بالمقارنة بينها وبين الحضارات الأخرى فى هذا المقام . مستصغرين لتلك الدعاوى والاتهامات الموجهة إليها ، والتى تكشف عن جهالة أو حقد أصحابها .

---

(١) حيدر بامات : مجالى الإسلام ص ٤١

ثالثاً : الحضارة الإسلامية : الموضوع والآفاق :

١ — فى الموضوع :

فى حديثنا السابق حاولنا أن نرسم باختصار منهج الحضارة الاسلامية وهدفها واتهينا إلى أنها حضارة ذات منهج وهدف ، فأما منهجها فقد كان مزيجا من تفاعل العقل بكل معطياته ، والتجارب ـ فى حدود الامكانيات ـ مع الوحى الالهى ، وأما هدفها فهو « الانسان » بكل مطالبه وأشواقه .

وفى هذا المقام نتحدث عن موضوع هذه الحضارة ، وسنتحدث بايجاز عنه مؤكدين على روحية موضوعاتها ، حتى فى الجوانب التى هى من نتاج العقل الخالص أو الوجدان والذوق إلى غير ذلك مما يشكل التعبير الحقيقى عن تقدم الأمة وتطورها .

وموضوعات الحضارة الاسلاميـــة كانت تعبيراً حقيقياً عن كيان الانسان ، من ثم جاءت متنوعة النماذج والأشكال ، منها ما يتصل بالسياسة وأنظمة الحكم والمال والاقتصاد وكل ما يتعلق بمقومات الأمم المتمدنة ، ومنها ما كان نتاجا للعقل والفكر ، كالفلسفة والرياضة والفلك والعلوم الفيزيائية التجريبية ، ومنها ما كان تعبيراً عن الوجدان والشعور كالفنون والآداب . وهى فى مسارها نحو هدفها وغاياتها كانت انعكاساً لمنطق العقيدة الاسلامية ، حتى وان بدت فى بعض مظاهرها ترفا عقليا أو وجدانيا .

نعم أن علوم الأوائل من اليونان والرومان وبعض التراث الشرقى قد نقل إلى اللغة العربية فى العصر العباسى الأول ، وعرف المسلمون عن هذا الطريق وعن طريق الالتقاء الشفوى المباشر مع حملة الحضارتين اليونانية والرومانية فى البلاد التى دخلها الاسلام فاتحا ، عرفوا المظاهر الحضارية

الأمم السابقة ، ولكنهم لاحظوا ما وراء مظاهرها المادية من معنى روحى عميق ، فجاءت حضارتهم ممتشحة بهذا المعنى الروحى على تنوع موضوعاتها .

ويمكن تنويع موضوعات الحضارة الاسلامية إلى ثلاثة أنواع رئيسية :

(أ) نوع يعنى بالموضوعات التى تتصل بالنظم المختلفة التى تعبر عن الوجه الحضارى للأمة الاسلامية .

(ب) نوع يعنى بالموضوعات التى تبرز دور هذه الحضارة فى العلوم الانسانية والاجتماعية والفنون التى تترجم عن أذواق أصحاب الحضارة :

(ج) نوع يتناول العلوم الحيوية ، التى تعتبر إسهاماً حقيقياً فى التقدم الانسانى من الناحية المادية .

فالنوع الأول : يشمل : النظام القانونى — والمدنى — والجنائى — وأحوال الأسرة والقانون الدولى والنظـــام السياسى والنظام المالى والاقتصادى ، والنظـــام الادارى والنظام القضائى . والنظام التعليمى والتربوى ، والنظام العسكرى والحربى . إلخ .

ويكفى أن نقف وقفة قصيرة مع أحد هذه الأنظمة ، نبرز العطاء السخى للحضارة الاسلامية فى هذا المقام ، كمثال يمكن أن يقال نظيره فى الأنظمة الأخرى . وأعنى به : النظام السياسى : أو نظام الحكم ، والمبدأ العام الذى يقوم عليه هذا النظام فى تنصيب الحاكم أولا : هو الاختيار — لمن تتوافر فيه الشروط التى تؤهله لتحمل هذه التبعة ، ثم يجىء مبدأ الشورى كأساس فى تنظيم السياسة العامة للدولة .

والشروط التى وضعت لمن يتولى رئاسة الدولة هى : العلم ـ العدالة ـ الكفاية سلامة الحواس والأعضاء مما يؤثر فى الرأى والعمل ـ كما عبر عنه صاحب الأحكام السلطانية ، ومهمته هى « حمل الناس على مقتضى النظر

الشرعى فى مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها ، إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشرع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة ، فهى فى الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع فى حراسة الدين وسياسة الدنيا(١) .

واعتبار الحاكم قائما على تطبيق شرع الله وخليفة عن صاحب هذا الشرع - كما صوره ابن خلدون - إنما يرتكز أساسا على قول الله سبحانه وتعالى « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ، فان تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر . ذلك خير وأحسن تأويلا(٢) » .

فالقرآن والسنة إمامان للحاكم ، يقوم على تطبيق أحكامهما نصاً وروحا حسب ما يرى أهل الحل والعقد ، وعند التنازع فى مسألة ليس فيها نص شرعى يرجع إلى روح هذين الامامين لاستلهام هذه الروح فى تحرى الحق والعدل بين الناس .

ان ما للحاكم من حق الطاعة على المحكوم (الشعب) وما للمحكوم من حق العدل على الحاكم هو التحديد الحقيقى للعلاقة بينهما . وفى هذا المقام يقول الشيخ محمد عبده « و ن لنا لدليلا عن ما قدمنا — من وجوب نظام الشورى وطاعة المحكوم للحاكم فى حدود الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر — فيما فعل عمر بن الخطاب وقومه رضى الله عنهم ، حيث قام بينهم خطيباً فقال ، يا أيها الناس : من رأى منكم فى اعوجاجا فليقومه ، فقام رجل أعرابى فقال : والله لو وجدنا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا ، فقال عمر : « الحمد لله الذى جعل فى المسلمين من يقوم عوج عمر بسيفه » إذا ليس معنى تقويم العوج فى هذا إلا التنبيه على الحق والارشاد إلى الطريق المستقيم(٣) .

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ١٦٦ . (٢) سورة النساء : ٥٩
(٣) تاريخ الأستاذ الامام : جـ ٢ ص ١٩٦

ومما لاشك فيه أن قضية « الشورى » باعتبارها المبدأ الأساسى لنظام الحكم فى الإسلام لايمكن أن تكون محصورة فى أمور الدين من عبادات وشعائر ، ولكنها شاملة وعامة ، بدليل قول الله تعالى « فإن تنازعتم فى شىء » فلفظ « شىء » هنا غير محدود ، ومحاولة الخروج بهذا النظام عن هذا المعنى هو ضرب من الهذيان والعبث لأنه يحاول — جاهدا — تطويع النصوص الشرعية لمفاهيم خارجة عن روح الحضارة الاسلامية .

وعلى هذا فالكتابات التى جاءت على غرار ما كتبه صاحب « الإسلام وأصول الحكم » لا ترقى إلى مستوى الكتابات الجادة .

لقد قامت فى أوربا منذ العصور الوسطى وحتى الآن سلطتان ، سلطة الامبراطور أو الحاكم وسلطة البابا أو الكنيسة . وهذه ثنائية لم تعرفها الحضارة الاسلامية ، والنصوص التى نقلناها سلفا هى أكبر شاهد على ما نقول ، وقد أقر بذلك بعض مؤرخى الحضارات .

يقول توماس أرنولد « لقد وجد فى الغرب حاكمان ، أحدهما زمنى هو الامبراطور والآخر روحى وهو البابا ، أما نظام الحكم فى الاسلام فالحاكم يجمع بين السلطتين الزمنية والروحية »(١) .

والنوع الثانى : وهو الذى يشمل الفنون والآداب — كان عطاء الحضارة الإسلامية فيه أيضاً عطاء فياضا : فى الأدب بنوعيه - الشعر والنثر - وفى الفلسفة بفروعها المختلفة وفى العلوم الاجتماعية ، وفى نظم التعليم ، وفى منهج البحث العلمى - وفى الفنون كالموسيقى - وفن العمارة والزخرفة .. الخ .

ففى مجال الأدب يطالعنا الأثر « إن من البيان لسحرا ، وإن من الشعر

(١) د. حسن إبراهيم . تاريخ الإسلام السياسى جـ ١ ص ٤٣٩

الحكمة ، ومن الطبيعى أن رسالة الإسلام العالمية ، فى أشد الحاجة إلى من يتحدث عنها بالأسلوب الرفيع ، وينفعل بمبادئها العظيمة ، ويترجم هذا الانفعال إلى أسلوب جميل أخاذ . وإذن فالباعث هنا هو الدين نفسه ورسالة الأدب هنا رسالة هادفة(١)، لأنها مرتبطة بالدين ، ويكفى أن يطالع القارئ بعض ألوان الأدب الإسلامى كقصة « حى بن يقظان » مثلا ، ليرى بجانب الأسلوب الرمزى العميق الهدف والمقصد من وراء هذا الوشاح الجميل . إنها تهدف إلى أن النور الفطرى الذى أودعه الخالق سبحانه وتعالى فى كيان الإنسان يمكن أن يهدى إلى الحق ، إذا لم تصرف الإنسان صوارف المادة ، وكذلك قصة الاسراء والمعراج التى تقوم على تخيل العالم الآخر ، ورسالة الغفران لأبى العلاء المعرى ، كلها ألوان من الفن الأدبى الرفيع ، الذى تتلاقى عنده العاطفة المشبوبة مع الخيال الرائق المنطلق من تصور معين للوجود ، على نحو ماجاء به الدين الإسلامى .

وفى مجال الفلسفة نلاحظ الابتكار والتجديد لدى بعض الفلاسفة من المسلمين فى بعض نواحى الفلسفة العامة ، ولقد كان لفلسفة ابن سينا — وبخاصة فى بحوثه النفسية الأثر البارز لدى بعض متفلسفى الغرب ، نعم : أن الفلسفة الاسلامية اهتمت كثيراً بالتوفيق بين الدين والفلسفة ، وهذا مما تفرضه طبيعة الأشياء . فالأمة الاسلامية ذات رسالة عالمية يلتقى عندها الفكر من كل الألوان ، وعلى مفكريها أن يكافحوا ليوائموا بين معطيات الدين ومعطيات الفكر ، وهى فى مجموعها لم تخل من طرافة وابتكار كما قرر البارون « كارادوفو » .

وقد تولد — داخل نطاق الفلسفة الإسلامية — من هذا التزاوج تيارات

(١) يوضح هذا أن القرآن الكريم عندما نعى على الشعراء بقوله « والشعراء يتبعهم الغاوون » استثنى منهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات .

فكرية متباينة ، ارتبط بعضها بالفكر الموروث ، وتحرر بعضها من ذلك وتوسط تيار ثالث وهكذا رأينا فى ظل الحضارة الإسلامية ، وفى عنفوان الحركة الفكرية ، تلك النماذج العالية من الحكمة . وقبل أن نتلمس لهذه التيارات مصادر غريبة عن البيئة ، علينا أن نبحث لها عن أصول إسلامية ، والحق أن كل فريق ممن يمثلون هذه التيارات يحاول أن يجد لفلسفة شرعية من الدين — وهذا إن دل على شىء فإنما يدل على أن هذه الفلسفة كانت متفاعلة مع الدين الإسلامى .

وليس فى هذا أدنى عيب ينتقص من قدرها على اعتبار أنها قائمة على أساس دينى بل أن الباحث المنصف هو الذى يقرر أن عكس ذلك هو المعيب . ذلك لأن القول بحرية الفكر ، دون أن يكون لهذه الحرية حدودها ، هو قول بالدعوة إلى الفوضى فالفكر أن لم يكن ملتزما بقضايا الأمة التى ينشأ فيها يكون فكراً مخرباً لا بانياً .

وفى مجال الفن يطالعنا ذلك الحشد الهائل مما أفرزته حضارتنا . وقد كان تعبيراً عن انفعال الفنان بمبادىء الدين الجديد وتأثره بمجالى الطبيعة من حوله على اعتبار أنها أثر ليد صناع ، وفى القرآن الكريم مشاهد موحية للخيال والعاطفة الفنية بالتحرك ، على غرار قول الله تعالى : « الذى خلق سبع سماوات طباقا ، ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور »(١) .

وقوله : « ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين »(٢) .

(١) سورة الملك : آية ٣
(٢) سورة الملك : آية ٥

وقوله : « واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعاً (١) .

كما يتحدث عن الأنعام ومنافعها كقوله « والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق مالا تعلمون » (٢) .

كما يرسم صوره رائعة لاختلاف الثمار مع اتحاد البيئة كقوم تعالى : « وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ، ونفضل بعضها على بعض فى الأكل أن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون » (٣) ،

والجانب الذى رؤى أنه غير موافق مع أحكام الدين ، من الأشكال الفنية إنما كان أمره كذلك لأن الإسلام فى تشريعاته كلها فى جانبى الإقرار والنهى ، أنما يتخذ من الإنسان الذى تتعادل مطالبه الوجدانية والروحية والعقلية والمادية هدفاً له .

هذا من ناحية . ومن ناحية أخرى يحاول أن يرأب أى تصدع فى جدار العقيدة الصحيحة لكى لاتعود الوثنية التى جاء لمحاربتها .

والنوع الثالث :

وهو الذى يتناول العلوم الحيوية التجريبية ، تمخضت الحضارة الإسلامية عن أينع الثمار فى هذا المقام فى علم : الطب والفيزياء والكيمياء والرياضة ، ففى الطب نبغ ابن سينا والرازى وابن رشد وخطوا بهذا العلم نحو الأمام

(١) سورة الكهف : ٣٢ .
(٢) سورة النحل : آية ٨
(٣) سورة الرعد : آيه ٤ .

بل أن المسلمين وصلوا فى التخصص الدقيق مبلغاً عظيما ، وكتاب « تذكرة الكحالين » الذى ألفه على بن عيسى طبيب العيون المسلم يعد نادرا فى هذا الباب وظل الكتاب يدرس فى أوربا حتى القرن الثامن عشر ، كما أن كتاب « فردوس الحكمة » الذى ألفه على بن سهل الطبرى يعتبر من أهم المراجع الطبية التى تجمع فى سطورها بين الطب والحكمة الآلهية .

وكتابا « الحاوى » و « أمراض الأطفال » لمحمد بن زكريا الرازى كانا فريدين فى بابهما وظل تأثيرهما فى أوربا إلى زمن ليس بالبعيد .

وأما ابن سينا وابن رشد ، فقد نبغا فى هذا العلم كما نبغا فى غيره من العلوم ولايزال لكتاب « القانون » ، لابن سينا و « الكليات » لابن رشد الأثر الممتاز فى نفوس الباحثين الغربيين حتى يومنا هذا .

ومما يلفت النظر فى هذا المقام أن الطب النفسى كان معروفاً لبعض الأطباء المسلمين وهو أمر تمثل الكليات المعنية بالطب على تعميقه فى حياتنا المعاصرة ، ومما يروى فى ذلك أن ابن سينا كان مكلفاً بعلاج فتى لم يهتد الأطباء إلى معرفة علته ، فاستدعى أحد عرفاء المدينة ، وطلب منه أن يسرد أحياءها ، وفى نفس الوقت أمسك بيد الفتى ثم سأل الرجل عن فتيات هذا الحى ، فزاد نبض الفتى عند ذكر احداهن ، فالتفت ابن سينا حينئذ إلى أهل الفتى ، وطلب إليهم أن يزوجوه من تلك الفتاة لأن هذا هو الدواء (١) .

وفى مجال الفزياء أجمع الباحثون المحدثون فى الشرق والغرب على أن المسلمين تفوقوا تفوقاً باهراً فى هذا الميدان وبخاصة فى مايختص بالعدسات والبصريات وأنهم فاقوا الاغريق فى هذا بالإضافة إلى المغناطيسية والصوت

(١) د/ سعيد عاشور : المدنية الاسلامية ص ١٥٧ .

والجاذبية الخ . كما أنهم عللوا الكثير من الظواهر الطبيعية تعليلا علميا، تؤكده اليوم البحوث المتطورة ، وفى كتاب « نهاية الادراك » لقطب الدين الشيرازى شروح وتعليلات عميقة لبعض الظواهر مثل « قوس قزح » ، كما أن لهم تفسيرات فى الجاذبية وانكسار الضوء وتعيين كثافة بعض المواد تعد ممتازة فى هذا المقام .

وفى علوم الكيمياء يذكر صاحب كتاب « مجالى الاسلام »(١) ، أنه ليس من المبالغة أن يقال : إنه لا وجود للكيمياء قبل مجىء الحضارة الاسلامية ولا يعترض على هذا بعلوم الكيمياء لدى اليونانيين ، لأنهم كانوا يجهلون أهم العناصر جهلا تاما كما للكحول والحامض الكبريتى والحامض النترى .

ويقول ديورانت فى ذلك « إن العرب فى توصلهم إلى كثير من الحقائق الكيميائية لم يكونوا مدينين بشىء إلى علوم اليونانيين . الذين لم يعرفوا معظم ماتوصل إليه العرب من مواد كيمائية هامة ، وبهذا يكونون هم الذين ابتدعوا الكيمياء بوصفها علما من العلوم ، لأنهم أدخلوا الملاحظة الدقيقة والتجارب العلمية والعناية برصد نتائجها فى حين اقتصر اليونانيون على الخبرة الصناعية والفروض الغامضة(٢) .

وتعتبر مؤلفات « جابر بن حيان » موسوعة علمية نادرة فى علم الكيمياء وظل نفوذها فى الأوساط العلمية الأوربية حتى عهد قريب ، وقد جاء بعده بعض العلماء الذين أضافوا إلى تراثه الكيميائى عناصر جديدة ، وكما يقول « لوبون » لولا ما وصل إليه العرب من نتائج واكتشافات لما استطاع أبو الكيمياء الحديثة « لافوازيه » أن ينتهى إلى اكتشافاته(٣) .

---

(١) حيد ربامات : مجالى الاسلام ص ١٣٩ .
(٢) قصة الحضارة ج ٢ من المجلد الرابع ص ١٨٧ .
(٣) حضارة العرب ص ٥٠٣ .

وقد أدى تفوق المسلمين فى العلوم الكيميائية إلى نضوج مباحثهم فى « الصيدلة » ، والكيمياء الصناعية ، فأثر ذلك كله فى كثير من الصناعات الطبية والمدنية والعسكرية .

وليس من العسير أن يقال : إن هذا التفوق فى هذه العلوم الحيوية لدى المسلمين ، هو أكبر من أن يحصر فى سبب بسيط هو الحاجة الضرورية المادية إلى نتائج وثمار هذه العلوم ، بل أن وراء الضرورة المادية معنى آخر ، يرتبط بالاساس الروحى للحضارة الاسلامية ، فالمادة التى هى موضوع العلوم الحيوية — تتفاعل أجزاؤها عند تلافيها بنسب معينة وفى أحوال مخصوصة ، لتعطى نموذجاً ماديا مخالفاً ، ووراء هذا التفاعل والتأثير قوة غير منظورة ، هى التى تخضع تفاعلات هذه العناصر لقانونها وكذلك الحالة فى الظواهر الطبيعية ، فالعقل يجزم بأن وراء كل الظواهر سبباً أدى إلى أحداثها ، وهذا كله يؤكد أن العلوم الحيوية فى الحضارة الاسلامية كانت وثيقة الصلة بالمعانى الروحية .

وقد كان من الممكن — ونحن بصدد الحديث من موضوعات الحضارة الاسلامية — أن نتحدث عن بقية العلوم والفنون والأنظمة فوق ماذكرنا ، وحسبنا أن هذه نماذج فقط . ليست حاصرة لكل ألوان هذه الحضارة .

٢ — آفاق الحضارة الإسلامية :

نقصد بهذا المبحث الحدود الزمانية والمكانية لهذه الحضارة وأعتقد أنه بحكم طبيعة الإسلام العالمية ، وبحكم الظروف والملابسات العالمية التى عاصرت نموها وازدهارها ، وبفضل أهدافها الإنسانية وغايتها النبيلة كل هذا يجعل امتداد هذه الحضارة فى المكان والزمان أمراً طبيعياً ، وقد ألمحنا إلى شىء من هذا الامتداد فيما سبق ، نعم : لقد عبرت هذه الحضارة مكان ولادتها إلى مناطق جديدة ،

فأثرت فى تلك المناطق تأثيراً مباشرا ، يشهد به كل من درس بحياد وإنصاف المؤثرات الحقيقية فى عصر النهضة الأوربية وماتلاه .

يقول « بريفولت »(١) « إن مايدين به علمنا لعلم العرب ليس فيما قدموه الينا من كشوف مدهشة لنظريات مبتكرة ، بل يدين هذا العلم إلى الثقافة العربية بأكثر من هذا ، إنه يدين لها بوجوده نفسه .

إن ماندعوه بالعلم الحديث ظهر فى أوربا نتيجة لروح من البحث جديدة . ولطرق من الاستقصاء مستحدثة لمنهج التجريب والملاحظة والقياس ، ولتطور العلوم والرياضيات إلى صورة لم يعرفها اليونان ، وهذه الروح ، وتلك المناهج العلمية أدخلها العرب إلى العالم الأوربى :

وإذا كان هذا القول بيانا لأثر العلوم الحيوية التى انتجتها الحضارة الإسلامية فى الحضارة الأوربية فإن هناك شهادات أخرى لأثر العلوم الانسانية فى بلاد الغرب، يقول المستشرق الانجليزى « جب » قل من يستطيع

( ) فى كتابه (بناة الانسانية) .

أن ينكر ماتمتاز آداب الجنوب الأوربى من انبساط وخيال خصب ، يرجع إلى تأثر تلك الآداب بالمؤثرات العربية ، كما يرجع إلى ماخلفته الثقافة العربية من آثار فى أهل الأندلس(١) :

كلمة أخيرة :

لقد وقفت طويلا أمام موضوع « موقف الاسلام من الحضارة المعاصرة »(٢) فظهر لى ما أقنعنى بأنه لابد من تحديد موقف الاسلام من قضية التقدم الحضارى الذى يعيش فى ظله معظم الدول الغربية فى الوقت الذى يعيش فيه أبناء الاسلام عيشة الكفاف والفاقة :

ترى هل يمكن القول بأن الاسلام له دخل فى هذا الوضع ، أو أن المسئولية تقع على عاتق المسلمين وحدهم ؟

وإذا كان وضع الأمم الاسلامية الراهن يدعو إلى إيجاد سبيل للنهوض بها فما هو ؟

هذه جملة من الأسئلة يمكن فهم الاجابة عليها دون عناء إذا فهمنا موقف الاسلام من التقدم الحضارى .

إن الاسلام يرتب الموجودات هذا الترتيب التنازلى : الله — الانسان الكون فالله هو القوة المؤثرة فى الانسان والكون وبالضرورة فوجوده ليس كوجودهما ، هو « الموجود المطلق » والانسان هو أشرف مخلوقات الله « ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا (٣).

---

(١) تراث الاسلام : ص ٤٧٤

(٢) وهو عنوان المؤتمر الذى شارك فيه الباحث بهذا البحث .

(٣) الاسراء : ٧٠

والكون بجميع أجزائه مسخر لخدمة الانسان الذى فضله الله بالعقل والتفكير: « هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون ، ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون، وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون، وما ذرأ لكم فى الأرض مختلفا ألوانه إن فى ذلك لآية لقوم يذكرون ، وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون . وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وأنهارا وسبلا لعلكم تهتدون ، وعلامات وبالنجم هم يهتدون(١)

فى هذه الآيات حديث عن الماديات المسخرة للإنسان العاقل تكريما له ، ومتى استغلها على الوجه الذى يحفظ عليه صفة « المكرم » فإنه والحالة هذه يكون سائرا فى نفس الطريق الذى أراده الله ، ومعلوم أن استغلال هذه الطاقات على الوجه المناسب . يحتاج إلى جهد عقلى . وهو متوفر لدى الإنسان بحكم كونه مخلوقا كذلك .

ولا يعزب عن العقل الحكمة من رواء تعبير القرآن الكريم بالفعل « سخر » وما فى معناه ، أى أن المادة بحكم مخلوقيتها لله سبحانه وتعالى ، وبطبيعة مهمتها لا يمكن أن تأبى بذاتها عن أداء رسالتها ، وكونها مسوقة إلى الانسان فى اطار دلالتها على الخالق سبحانه وتعالى ، لأنها « آية » كما عبر القرآن الكريم يبرز الباعث وراء استغلال المادة المسخرة بما يرقى بالانسان روحيا وماديا

(١) سورة النحل ١٠ : ١٦

والحديث عن المادة فى السياق القرآنى — على الشكل الذى أبرزته الآيات السابقة وغيرها — ليس له نظير فى الحضارات المادية على امتداد التاريخ الإنسانى واعتقد أن هذا هو السر فى شقاء الإنسان الذى عاش فى ظل هذه الحضارات .

وليس انسان اليوم بأسعد حظا من سابقه ، وفى تعليل هذه الظاهرة يقول المفكر الإسلامى الكبير الدكتور محمد اقبال : « الرجل العصرى بماله من فلسفات نقدية وتخصص علمى ، يجد نفسه فى ورطة ، فمذهبه الطبيعى قد جعل له سلطانا على قوى الطبيعة لم يسبق إليه لكنه قد سلبه إيمانه فى مصيره هو .

والانسان العصرى قد أغشاه نشاطه العقلى عن توجيه روحه إلى الحياة الروحية الكاملة ، أى إلى حياة روحية تتغلغل فى أعماق النفس ، فهو فى حلبة الفكر فى صراع صريح مع نفسه، وهو فى مضمار الحياة الاقتصادية والسياسية فى كفاح صريح مع غيره(١) .

وفى ضوء ما قدمنا يتحدد موقف الإسلام من المادة وبالتالى من العلم التجريبى القائم على تطويعها لترقى الإنسان ، فالعالم المادى ليس شرا على الإطلاق فى نظر الإسلام . بل إنه مجلى للنور الذى يضىء جوانب النفس البشرية على اعتبار أنه شاهد على خالقه — كما سبق أن ذكرنا .

وعلى هذا فتوكيد المعنى الروحى فى حياة المسلم لا يكون باستبعاد القوى المادية وإنما يتحقق بتنظيم علاقة الانسان بهذه القوى على هدى النور المنبعث من العالم الموجود فى أعماق نفسه(٢) .

(١) تجديد الفكر الدينى فى الاسلام ص ٢١٥

(٢) المرجع السابق ص ١٦

وأحسبنى لست فى حاجة إلى إيضاح السبيل — بعد أن بينا موقف الاسلام من المادة — الذى ينبغى أن يسلكه المسلمون لتغيير واقعهم المتخلف إلى واقع حضارى ممتاز . فقد بان أن ذلك يتوقف إلى حد بعيد على تغيير نظرتهم إلى عالم الطبيعة ، والواقع ، بحيث ينظرون إليه — كما كان أسلافهم — على أنه مجال لحركة الانسان وسعيه ومعرفته ، فى ضوء مبدأ « الاستخلاف » فى الأرض و « الاستعمار فيها ، وإذن فالسبيل هو فهم الاسلام نفسه »

نتـــائج :

فى ضوء عرضنا الموجز يمكن الانتهاء إلى مايلى :

١ — أن مفهوم الحضارة الاسلامية أوسع من أن يحصر فى جانب معين بل يشمل كل انجازات العقلية الاسلامية فيما من شأنه أن يحقق سعادة الانسان ورفاهية انطلاقا من الدين الاسلام نفسه

٢ — كانت الحضارة الاسلاميه ذات منهج وهدف ، قام منهجها على تفاعل العقل مع الوحى لإحكام سير هذه الحضارة إلى هدفها ، وكان الإنسان من حيث هو « إنسان » هو هدف هذه الحضارة

٣ — تعددت موضوعاتها حتى شملت كل جوانب الحياة الاجتماعية والفردية .

٤ — اتسعت آفاقها فى النطاقين : الزمانى والمكانى ، مما يؤكد انسانيتها وشمولها .

٥ — السبيل الوحيد إلى تغيير واقع المسلمين هو إعادة فهم الاسلام من جديد فى ضوء عطائه الذاتى ؛ وتجديد الصلة بـــين عالمى المادة والروح . . . . . .

هذا وبالله التوفيق

أهم المرجـــع

١ — القرآن الكريم :

٢ — ابن خلدون	المقدمة
٣ — بريفولت	بناة الإنسانية
٤ — جـــب	تراث الاسلام
٥ — جروينباوم	حضارة الاسلام
٦ — حسن إبراهيم (الدكتور)	تاريخ الاسلام السياسى
٧ — حيدر بامات	مجالى الاسلام (ترجمة عادل زعيتر)
٨ — ديورانت	قصة الحضارة
٩ — سعيد عاشور (الدكتور)	المدنية الاسلامية
١٠ — فيليب حتى	الاسلام منهج حياة (ترجمة عمر فروخ) .
١١ — محمد اقبال	تجديد التفكير الدينى فى الاسلام (ترجمة عباس محمود)
١٢ — محمد رشيد رضا	تاريخ الأستاذ الأمام